

الدين والدولة والمجتمع في مواقف وآثار

محمد بيرم الخامس

1256 هـ / 1840 م - 1309 هـ / 1889 م

تأليف : علي الصولي

منشورات دار الطليعة الجديدة

دمشق - 2003 (464 ص)

تقديم : كمال عمران

ما زالت الكتابة عن الفكر الإصلاحية التونسي بحاجة الى التراكم المؤدي الى نتيجة ضرورية هي الانتقال من الدراسة المعيارية الى الدراسة النقدية. فقد مثل النصف الثاني من القرن 19 م للفكر العربي على وجه العموم، ولانماط الانتاج المعرفي في تونس على وجه الخصوص، منعطفا صاحبه سؤال جوهري مؤداه : الى أي حد توفرت الأسباب الموضوعية للوصول الى غاية التمدن ؟ وهل كان خطاب المصلحين مهما تميزت كتاباتهم بميزات خاصة بهم، خطابا قادرا على أن يحقق الأهداف الراجعة إلى "التقدم".

يندرج كتاب علي الصولي : الدين والدولة والمجتمع في مواقف وآثار محمد بيرم الخامس في إطار البحوث المتلاحقة المتصلة بإشكاليات النهضة. وبنى المؤلف كتابه على ستة فصول توزعت إلى مباحث غير

متكافئة من حيث العدد ومن حيث قيمة التحليل ودرجة التعمق في المسائل المطروحة.

الفصل الأول : ثقافة بيرم الخامس ومصنفاته. وهو بمثابة المداخل تناول فيها بالوصف عامة والتحليل عرضاً أبرز المراحل التي عاشها الشيخ بيرم مؤكداً الجانب الطلائعي فيه وقد كان الشوق إلى المعارف وإلى الخوض في غمار الحياة العملية - الجمعيات - كاجلجلة في الشيخ ولعل هذا ما يفسر غزارة مؤلفاته قياساً إلى السنوات القليلات التي عاشها عند التمكن العملي والاجتماعي.

الفصل الثاني : تعلق الفصل بتحليل محتويات كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" وتآزرت المباحث (ثمانية مباحث من ص 53 إلى ص 98) لتفيد القارئ بالأفكار الجوهرية الخافية بالكتاب كأسباب الكتابة وقد اقتصر الوصف على الأسباب الظاهرة كاضطرار الشيخ بيرم إلى السفر نحو أوروبا للمعالجة، كما حرص على تحليل المواقف الجوهرية في الصفوة بدءاً بالمفاهيم الأساسية كالرحلة والاعتبار. ولم ينأ الوصف في هذا الفصل عن رصد ما هو ظاهر في كتاب الصفوة كالنظر في محتويات الكتاب بشكل يكاد يقتصر على العرض أو على ملاحقة منهج الشيخ دون التوق إلى التساؤل عن المرجعية أو العلاقة العضوية بين المعنى والمبنى وختم الفصل بما سماه المؤلف خصائص وإضافات صفوة الاعتبار وقد أثر أن يحصرها في الجانب الاتنوغرافي (ص 96) وفي المسائل الاقتصادية (ص 97). وقد أقر أن المنطلق عنده "الملاحظات السريعة" (ص 98) وهي المطية لإثبات الإضافات الجسيمة في الصفوة ؟

الفصل الثالث : الإصلاح الديني والتربوي (ص 99 إلى ص 183) وفيه عنصران، الإصلاح الديني والإصلاح التعليمي والتربوي. اختار للعنصر الأول أربعة مباحث وللثاني ستة مباحث ويبدو أن أبرز فكرة ميزت تفكير بيرم الخامس في الإصلاح الديني نقد المفاهيم السائدة

وتقديم البدائل المشفوعة بالبرامج المتعلقة بمحتويات الفكر الديني وبالمؤسسات الدينية القائمة. وركز الشيخ في هذا العدد على "العلماء" وأبان عن رؤية انتبعت الى البون البائن بين ما يناط بهم من مسؤولية عملية واجتماعية من جهة وما كان سائدا من تخاذل وتواكل وإسراع الى العافية من جهة أخرى، وفي افتقاد الدور الفاعل للعلماء علامة على استشراء الجور المادي والمعنوي في آن وإفساح للمعتقدات الدينية الشعبية للانتشار ولا غرابة أن تتسم الثقافة الدينية بالتفكير الخرافي وبالسلوك المتواكل وقد عرف بيرم الخامس بجرأة في نقد المذاهب القديمة منها والطائفة كالدعوة الوهابية والحركة السنوسية وما يتصل بها من كلام على التصوف والأولياء والمزارات. ولم يكن لبيرم من الحدة الفكرية ما للردود الماثورة عن الشيخين اسماعيل التميمي (ت 1832) وعمر المحجوب (ت 1807) عند الطعن في "رسالة الوهابي" زمن حكم حمودة باشا (1782 - 1814) فقد كانت طريقة بيرم أميل إلى "الوسطية" وإلى النظر من زاوية الضروري والحاجي والتحسيني حسب عبارات علماء الأصول. وكان مبدأ الاجتهاد مفهوما وآلية من الحلول التي رآها الشيخ مخرجا من عاهة التقليد وإعداد الفكر الديني لبذل الوسع في المسائل الناجمة عن "روح الوقت" حسب تعبير ابن أبي الضياف في الاتخاف.

أما الإصلاح التعليمي فقد وجد عند الشيخ مساحة فسيحة نظرا الى انتباه أسلافه الى ضرورة المواجهة للآفات المحدقة بأدب الطلب. وأبرز موقف للشيخ اتصل بالدعوة الى اصلاح التعليم الزيتوني في مستوى البرامج وطرق التدريس. وكان له رأي أثير نشره في جريدته الموسومة بالإعلام تعلق بإصلاح التعليم في الأزهر وبالدعوة الى نحت ملامح جديدة للعالم تؤهل لتخطي الصورة المتخاذلة السائدة الى صورة فاعلة قد تحول عسر الوضع التعليمي المفروض الى يسر وضع يحث على المعارف وعلى العلوم ويوقظ همم أولى الأبصار لما فيه صلاح "الأمة". ولبيرم من جهة أخرى نظرات وتحقيقات اتصلت بالمدرسة الصادقية وبتنظيم المكتبات بوصفها الأداة اللازمة للتعليم العصري (ص 166).

الفصل الرابع : في القضايا الاجتماعية وفيه خمسة مباحث (ص 185 الى ص 256) جعل المؤلف المسألة الاقتصادية على رأس البحث الاجتماعي وقد ركب مركب الاقتصاد لتحليل أسباب التدهور المادي ورأى من الضروري التعرض لتاريخية المسألة ليحط الرحال في رؤية الشيخ ولابراز ما به تميزت في صفوة الاعتبار أو في جريدة الإعلام أو في الرسائل التي حررها طوال حياته. ومن أبرز القضايا التي وقف عندها الضرائب وهي التي مثلت الإشكالية الحادثة منذ زوال مداخيل القرصنة بعد منعها دوليا فضلا عن الكوارث الطبيعية والأحوال الديمغرافية الهشة وقد لخصها ابن أبي الضياف في جملة معبرة قال تونس فقيرة حسا ومعنى". وقد نفهم في هذا الإطار النقد الذي وجهه بيرم الى الذهنية المتواكلة - على المستوى الاقتصادي - في المجتمع التونسي من ذلك التقصير في مجال التجارة (ص 198). كما نفهم تآزره مع خير الدين في الإصلاحات الاقتصادية التي فتحت أبوابا لجدل حاد في عصره، من قبيل مد السكة الحديدية أو ظاهرة الكومسيون المالي أو سياسة الفوائض.

ولم يكن لبيرم الخامس تصور نظري في الاجتماع والاقتصاد فحسب بل لقد بادر الى عمل ميداني لعل أبرز مظهر فيه ترؤسه لجمعية الأوقاف (ص 212) واكتسابه لثقافة في تنظيم الأوقاف كانت زادا له عندما أضحى نزيل مصر. وإذا كان التعرض لشخصية بيرم في المجال الاجتماعي والاقتصادي من مقتضيات البحث الموضوعية فإن الإقبال على التحليل الانتوغرافي للمجتمع التونسي عنده كالمجازفة، إذ في فكرة التحليل ذاتها المفارقة بمنهجية هي في الأصل بحاجة الى الاقتناع. وقد غامر مؤلف الكتاب بمقدمات نظرية في علم الانتوغرافيا كما لذ له أن يطبقه على مواقف الشيخ فطفق يصف المطالب في الصفوة وهي مطلب في ديانة السكان ومفاهيمهم ثم مطلب في التجارة وآخر في ترتيب الأحكام والإدارة الى غير ذلك من المطالب المقررة في الصفوة. (ص 231 - 233) وهي في مجملها وصف جرى على النحو الذي دأب عليه أصحاب الرحلة فهل كان التوصيف راكنا الى مرجعية علمية

انتوغرافية ؟ وهل إن نقد بعض الظواهر الاجتماعية مؤهل بداهة لامتلاك ناضية علم مستجد في العلوم الأوروبية ؟ وهل تجاوز الشيخ بيرم في تصديه لمفاهيم العدل والحرية وعدد آخر من القيم ما كان معروفا عند معاصريه من التخلي عن الطريقة المثالية الساعية الى المجدرات المتكبة عن الحسوسات ؟

الفصل الخامس : بيرم صحافيا ومؤرخا (من ص 257 الى ص 305) وفيه عنصران، تعلق العنصر الأول ببيرم صحافيا وفيه ستة مباحث عالج فيها المؤلف مواقف للشيخ تآزرت حول فكرة محورية هي عقلية المبادرة والحرص على اقتحام الصعاب توقا الى تأسيس القواعد الممهدة للنهوض. وقد أدرك بيرم في تونس كما في مصر أهمية الصحافة والطباعة وله رؤى كفيفة بأن تجعل منه رائدا من رواد الصحافة التونسية بدءا بظهور الرائد التونسي سنة 1860. فلم يكن النشاط الصحافي عنده مقصورا على الكتابة فقد بعث جريدة أيضا وهي "الاعلام" وأسس مطبعة بمصر هي الاعلامية. وقد أحال المؤلف الى أبرز القضايا التي خاض فيها من خلال جريدته وفيها مقالات ناطقة عن اجتهد في تتبع الأخبار الداخلية والخارجية وفي كتابة المقالات ذات الطابع السياسي والديني والاجتماعي فضلا عن مجال الاقتصاد والثقافة. ولم يقصر همه على المحيط المصري بل حرص على رصد الأحوال في تونس وفي تركيا. وليس من شك في أن الجانب الصحافي عند بيرم تعبير ناطق عن وعي منه أن آليات البلاغ وأساليب الخطاب كانت تحتاج إلى النهل من الطرق المستحدثة في عالم الاتصال.

وفي العنصر الثاني نظر في شخصية المؤرخ وفيه خمسة مباحث رصد فيها المؤلف مواقف بيرم ومنهجه من خلال صفوة الاعتبار في الأحداث التاريخية وكان الشيخ قد انتبه باحتشام للتلازم بين تاريخ الوقائع وتاريخ الأفكار وتاريخ الذهنيات. وقد قلب المؤلف النظر في الجوانب الجوهرية عند بيرم مؤرخا. ولأطروحة الأستاذ أحمد عبد السلام الأثر

المبين في جل المواطن التي تعرض لها المؤلف بالتحليل. وقد يغري من هذه المباحث ما يتصل بمفهوم الزمن لدى بيرم الخامس (ص 303 - 305) إلا أن المجازفة بالقول إن لبيرم تصورا للتاريخ متسما بالتطور يستوجب الحذر العلمي الضروري وقد يحوج الموقف الى التأنى في المعالجة وفي التخريج.

الفصل السادس : السلطة والدولة في تفكير بيرم الخامس
(من ص 307 الى ص 401) وفيه ثلاثة عناصر أولها سياسة البايات بين الولاء والنقد وفيه ثلاثة مباحث وصفت موقف بيرم من سلطة البايات وموقفه من عهد الأمان وثورة علي بن غداهم وموقفه من الإصلاح مع خير الدين ومع مصطفى بن اسماعيل. ولعل بيرم ممن انفردوا برؤية تكاد توسم بالجرأة إذ تعاطف مع انتفاضة ابن غداهم وكانت مناصرته لإصلاحات خير الدين مستندة الى الموضوعية في التحليل والايان بأن الإصلاح هو السبيل الى درء المفاسد الناجمة عن الحكم المطلق.

وتناول العنصر الثاني بالدرس حضور الدولة العثمانية في تفكير بيرم من جانب الرؤية ومن جانب المواقف العملية. وجل المباحث في هذا العنصر ترجع الى نواة هي انتصار بيرم للخلافة وحرصه على تقديم النصح للسلطان طمعا في نصرته قضايا المسلمين وانقاذ الامبراطورية العثمانية.

العنصر الثالث تفرغ لموقف بيرم من الغرب وقد وسمه المؤلف بكونه اعتبارا لا انبهارا وفصل البحث فيه على أربعة مباحث تعرضت للعلوم والمعارف وللمؤسسات والنظم السياسية ولنقد عدد من الظواهر الاجتماعية في الغرب وانتهى الى موقف بيرم من الاستعمار وهو موقف ذو وجهين، أثر الاول عن الشيخ إزاء فرنسا وهو في البلاد المصرية وقد شنع بيرم بالاستعمار الفرنسي. وعرف الثاني اتجاهها آخر إزاء انكلترا تمثل في الموالاة.

يعتبر الكتاب مساهمة في التعريف بشخصية فكرية تونسية اجتهدت في خوض غمار الإصلاح انطلاقاً من مبدأ تمسك به المصلحون في النصف الثاني من القرن 19 م بتونس وهو الأخذ عن أوروبا بما يوافق الشريعة الإسلامية. وقد وجدنا في الكتاب الحاجة الى تقديم ملاحظات ندرج فيها من البسيط الى المعقد.

الملاحظة الأولى : تتصل بالأخطاء وقد تعددت وتنوعت وأفسدت في مواضع عديدة على القارئ الخرص على إمعان النظر. وقد يرجع عدد منها الى الطباعة والرقن على أن عدداً آخر يستوجب المراجعة وليس من وجه لتعديد هذه الأخطاء وهي كثيرة ولا محيد عن تنقية العمل من الشوائب النحوية والتركيبية والتعبيرية.

وفي الكتاب تسرع في مبحث الشعر عند بيرم الخامس، فالقصيدة الأولى من البحر الكامل وليست من الوافر، والقصيدة الثانية من الطويل وقد سكت المؤلف عن البحر. والسؤال المطروح في هذا الصدد هل إن النصوص التي اختارها المؤلف لبيرم شعر أم نظم. وإلى أي حد يتسنى أن نجوس خلال "الذاتية والواقعية" في أدب بيرم وهما مصطلحان يلائمان النص الإبداعي الأثير دون غيره.

الملاحظة الثانية : تضمن الكتاب عدداً من المعلومات جاءت على نحو تقريرى في حين يجدر عرضها على محك التراث والنقد.

من هذه الملاحظات : استعمال عبارة العربان (ص 21) للإحالة الى انتفاضة البدو أو الفلاحين، واستعمال العربان في هذا السياق مجازاً لما اختارته سلطة البايات لتهجين وثبات أهل البادية ومقاومة رفضهم للقهر المفروض عليهم على مستوى الضرائب بصفة خاصة.

ومنها تلقيب بونابرت بنابليون (ص 25) وهو لقب لم يكتسبه بعد عند حملته على مصر (1798).

ومنها الكلام على الاجتهاد وكأن بابه قد أغلق (ص 25) يقول المؤلف "أما باب الاجتهاد فقد أغلق منذ قرون من طرف "علماء الدين" إذ اعتبرت كل المحاولات الاجتهادية بدعا "وكل بدعة ضلالة". ولم نقف على هذا المعنى ولا على الربط بين الاجتهاد والبدعة على وجه التلازم بل إن الشاطبي في "الاعتصام" وعزالدين بن عبد السلام في "قواعد الأحكام" من القدامى وعلى محفوظ الأزهري في كتابه الإبداع في مضار الابتداع، (القاهرة 1348 هـ) من المحدثين عرفوا البدعة بكونها مخالفة للسنة وقد سبق لابن قيم الجوزية في كتابه اعلام الموقعين أن أبان عن طريقة الخلفاء الراشدين وغيرهم من جلة الصحابة في الاجتهاد أخذاً عن النبي. ولقد نص ابن خلدون في المقدمة على سد الاجتهاد فاستعمل الفعل المسند الى نائب الفاعل إحالة الى استشارة الجهل فكانت الأوضاع هي التي غلقت الأبواب ولا رأي العلماء. وللشيخ بيرم الخامس في مقدمة رسالته تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص موقف من الاجتهاد ينطق عن سبيل له لا يمكن أن تغلق.

ومنها التعرض للحدثة في تحليل الخطاب الإصلاحى عند الشيخ بيرم، وقد وجدنا الاستعمال محفوفا بالمبالغة وبالمجازفة لأن الأصل الذي انطلق منه بيرم وكان كالقاعدة في الفكر الإصلاحى الإسلامى (خير الدين، الطهطاوي، علي باشا مبارك. الأفغانى، محمد عبده ...) لا يسمح بالخروج عن الشريعة ومقاصدها وهل يسنح الكلام على الحدثة في سياق الفكر الدينى ومرتكزات الحدثة هي الإنسوية إطارا والديمقراطية سياسة والعقلانية منهجية والعلمنة فكرا ولا نحسب أن هذه الأقانيم داخلية في حيز الثقافة الدينية عند الشيخ.

الملاحظة الثالثة : أجرى المؤلف كتابه على عدد من المواقف نعتبر أن مناقشتها سبيل الى الانتقال من المنهجية المعيارية الى الطريقة النقدية. واكتفينا بنماذج دون غيرها.

أ . الموقف من الاقتصاد : يؤهم التحليل بأن لبيرم شأوا في علم الاقتصاد بليغا (ص 97 - ص 191) وقد طفق المؤلف يحلل الرؤية

البيرومية بوصفها رائدة في معالجة القضايا الاجتماعية من المنظور الاقتصادي وانطلق المؤلف في تحليله من تصور خلاصته أن المفكرين المسلمين "لم يشعروا بحدة وثقل هذه المشكلة الاقتصادية إلا في وقت متأخر" فكيف تأتي لبيروم أن يدلي بدلو في الاقتصاد طلائعي ؟ لا ننكر ما في الصفوة من ملاحظات تتصل بالاقتصاد ولا نغفل عن الدور الذي قام به بيروم على رأس جمعية الأوقاف إلا أن جل معاصريه قد دونوا ملاحظاتهم في الغرض ولم نقف عند رؤية اقتصادية متكاملة يمكن أن تعلن سبقا، والراجع الى دراسة عزام محجوب : الصناعة وتراكم رأس المال في تونس أواخر القرن 18 م الى الحرب العالمية الثانية (تونس 1983) يجد من التحليل والتأليف ما يؤكد عسر الاقتناع بالوعي الاقتصادي المبكر (ص 191) في ظرف لم يكن لدولة الباي من التقاليد في ضبط الميزانية ضبطا موضوعيا فضلا عن سياسة التداين وسياسة الضرائب المجحفة مما أفضى الى مسألة الكومسيون المالي.

فكل ما يتصل بالاقتصاد في الكتاب يستوجب المراجعة وإن في النهل من كتاب سمير أمين التطور اللامتكافئ (ترجمة برهان غليون، بيروت 1973) ما يدرأ من الغموض وما يهدي السبيل الى العضلات الخافة بالاقتصاد وطريقة الفهم والتصرف المختلفة بين أوروبا والمشرق العربي. وقد كانت أوروبا تخطط لتجاوز ظاهرة التراكم بتوخي طريقة التخارج بحثا عن الأسواق وعن المواد الخام في جنوب البحر المتوسط.

ب. الموقف من التجديد : (ص 134) خص المؤلف المبحث الرابع من العنصر المتصل بالاصلاح الديني بتحليل تناول فيه مسألتين جوهريتين هما الاجتهاد والتجديد. وقد ألعنا إلى الاجتهاد وأشرنا الى أن غلق أبوابه وهم لا يستند الى حقيقة تاريخية ولم نقف إلا على جفاف المعين في الثقافة الإسلامية بسبب استسراء داء التقليد فلم يغلق الباب بل عجز الفكر عن الارتقاء إليه. والفرق جسيم بين صدور حكم من "العلماء" لسد الاجتهاد (وهو ما ذهب إليه المؤلف) والفقر المعرفي الذي صد أهل

التقليد عن إعمال العقل - وهو ما نذهب إليه - أما أمر التجديد فهو أدق إذ إن المؤلف أوهم بأن التجديد تطوير وأنه مواقف طلائعية أيضا وضرب أمثلة على ذلك من فتاوى الشيخ (ص 140 - 141) والرجوع الى المعنى الاصطلاحي يثبت دلالة مختلفة لا تبيح الربط بين الاجتهاد والتجديد، وقد نص الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة (تونس 1985) على أن التجديد يستدعي الرجوع الى الأصل فليس من وجه للظفر بالاضافة أو بالتطوير. فليس التجديد في الاصطلاح إلا تقوية الراهن بالعودة الى الجذور - ولم نجد في كتابات الشيخ بيرم ما يتخطى المعنى الاصطلاحي ولم يكن بوسع الخروج عن الأنساق بحكم طبيعة الثقافة التقليدية وقوامها على الاستئناس بالترجيح لا بالاجتهاد المطلق.

ج . الموقف التاريخي (ص 161، ص 289). مال التحليل في هذا الكتاب إلى تأكيد صفة المؤرخ في شخصية محمد بيرم الخامس، وشأن التاريخ في صفوة الاعتبار مشوب بنزعة إلى الأخبار تغري بتصنيف الشيخ ضمن الإخباريين لا ضمن المؤرخين، ولم يتميز بيرم عن ابن أبي الضياف في هذا السياق. فالحذر في إلقاء الصفات أولى والثاني في نقد الطريقة التي توخاها الشيخ في الصفوة سبيل إلى القراءة النقدية الضرورية تجنباً للمفاخرة والتمجيد.

ولا يتسنى الإغضاء في هذا الكتاب عن مشاكل راجعة إلى الهوامش والإحالات وقد يحرج الباحث التعامل مع هذه المنهجية الأكاديمية الجوهرية ونضرب أمثلة على ذلك عددا من النماذج منها ذكر المرجع دون صاحبه أو المرجع دون الصفحات المتعينة (ص 57) ومنها الاكتفاء بعبارة البعض في مواضع مهمة كبداية النهضة مع حملة بونابرت أو مع احتلال الجزائر (ص 59) ومنها التنصيص على مراجع لا تخدم الفكرة ولا تقدم المعلومة الضرورية ففي الصفحة 107 الإحالة (9) جمع المؤلف عددا من المعلومات لم نر أن المراجع التي أشار إليها هي الملائمة كما أن

الحسبم في شأن انتساب الإباضية الى الخوارج غير بات وللمذهب في الردود على هذه الشبهة مقالات أشار إليها فرحات الجعبري في كتابه البعد الحضاري للعقيدة الإباضية (1987) ص 68 الى ص 89 والرجوع الى النصوص الأصلية دافع إلى النظر في المسألة والشأن نفسه في الإحالة (157) في الصفحة 225 وقد تعرض المؤلف للإنزال تعرضا سريعا في حين أنه من المسائل الخطيرة في تاريخ الأفكار في الفترة الحديثة والمعاصرة وقف عندها عبد العزيز الثعالبي في كتابه "تونس الشهيدة" وتعرض فيه لتاريخية المسألة تركيزا على النصف الثاني من القرن 19 م ومثلت الفتاوى المتصلة بالإنزال معضلات حادة في تونس وفي الجزائر إذ كانت الوسيلة التي بها نجح الاستعمار في بسط نفوذه على الأراضي الفلاحية تحت رداء الفتوى الشرعية.

الحاجة الى مدونة نقدية تعيد قراءة نصوص المصلحين وتضيف إلى الدراسات المعروفة في الفترة وفي رجالاتها حاجة تطرح سؤالا : أليس الأكيد أن نثري المكتبة العلمية بإنتاج المعرفة لا بالجمع أو بالنقل أو بتوخي نفس تمجيدي.

كمال عمران